

هو العليم

مطالب حول

المراقبة والتزكية و ضرورة الحذر أثناء السير والسلوك

الليلة الثانية من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٨ هجرية قمرية

مسجد القائم

سَمَاحَةُ الْعِلْمِ أَمْرٌ أُنزِلَ حَيْثُ

أَيَّةُ اللَّهِ الْحَاجِّ الْحَاجِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الظَّهْرَانِيِّ

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المحاضرة



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على خير خلقه محمّد وآله الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

لا يتحقّق اجتياز الطريق إلى الله بمجرد الكلام والقول.. وإنّما هو  
توأم مع العمل، وبالمقدار الذي يعمل الإنسان يكون ناجحاً ومتطوراً،  
وبالمقدار الذي يتخلّف فيه عن العمل يكون متأخراً.

رسول الله صلّى الله عليه وآله في فتح مكّة، صعدَ فوقَ جبل الصفا،  
وذلك حينما كان جميع بني عبد المطلب محيطين به، حيث كان هناك  
حشد عظيم، وذلك بعد أن سيطروا على الكفّار وانتصروا عليهم، بعد أن  
طُردَ المشركون وأبعدوا وهزموا، وصاروا أذلاءً ينظر إليهم كأبناء الطلقاء،  
وأصبحت القدرة والعظمة والعزّة والمهابة منحصرة بالنبّي وأهل بيته وبني  
هاشم وبني عبد المطلب، في ذاك الوقت ألقى النبيّ خطبة مختصرة جداً  
قال فيها:

مفادها - سوف نتعرض لها حتما فيما بعد - من هذه القبيل مثلاً:  
 نشاهد الآن أن الإسلام قد انتصر، وأصبحت العزة للإسلام، والله قد منّ علينا بالنصر، وغلبت كلمة الحق على الباطل، فلا تتصوروا أنكم بواسطة انتسابكم إليّ أن الأمر قد تمّ، وحسب قولنا المتعارف: قد عبر حماركم من على الجسر فيمكنك أن تفعلوا وتعبثوا كيفما تشاؤون!<sup>(١)</sup> وتفعلون ما يحلو لكم.. وأن انتسابكم إلى نبيّ آخر الزمان يعفيكم ويصفح عنكم ويستتر عليكم كل شيء، أو أنه يوافقكم ويمضي ما تفعلونه.. لا أبداً.. ليس الأمر كذلك! كل شخص مرهونٌ بعمله، فأنا رهن عملي وأنتم مرتهنون لعملكم! وإن لي عملي وإن لكم عملكم، فإن أنا عصيت الله سوف أسقط، وأقع في وادي الهلاكة.

وهذه هي وصية أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، وكذلك هي توصية جميع الأئمة عليهم السلام إلى أولادهم وأقربائهم والمنتسبين إليهم وأصحابهم وأمثالهم، وخلاصة المسألة، أنه لم تتمّ المسألة بمجرد الانتساب، بحيث يخال للإنسان أنه بصرف ذلك يمكنه أن ينتفع ويتقدم إلى الأمام، وبالتالي يتستّر ويتخفّى بسلوكه في الطريق المعوجّ ومخالفة سنة النبيّ التامة.

فلو كان كذلك لكان الله ظالماً! فالله يتعامل بعين واحدة مع جميع الموجودات، ولو كان الأمر في هذه المسائل على هذا النحو، أي يكون مجرد الانتساب مستوجباً للتقرّب وإعطاء المقام والمنزلة والسير والوصول

(١) وهو مثال فارسي أصله هكذا: خرش از پول گذشت، قاموس دهخدا.

إليه وما شابه ذلك، وذلك دون إعمال النظر والحكمة، فمن الواضح أن ذلك سوف يكون خطأً مائة بالمائة.

**السلوك عبارة عن العمل! سلوك طريق الله هو العمل!** والسالك هو الشخص الذي يجتاز هذا الطريق بصدق، ويكون الاعتناء بنفسه أهم من سائر أعماله بالنسبة إليه، بحيث أنه يشدد حزام الهمة من أول الأمر، ويحفظ نفسه - بحول الله وقوته - من جميع الآفات والعاهات التي تعترضه أثناء الطريق.

أولاً: الإفراط من الأكل والأطعمة واللذات المادية؛ فعلى السالك أن لا يأكل كثيراً، لا ينبغي أن يتملى من الأكل، فما لم يجع لا يأكل، فتناول اللحوم والبيض والدهنيّات والأطعمة الدسمة الثقيلة على المعدة مضرّ، وهي ثقيلة على الكبد والكلية، وكثرة الأكل منها مضرّ، كذلك التفكّه.. التفنّن.. الأكل الاجتراري.. الرفاهية في العيش.. كل ذلك فيه ضرر.

وكان المرحوم القاضي - رحمة الله عليه - يأمر تلامذته أن يمتنعوا عن تناول الطعام لمجرّد التفكّه! وفي أحد الأوقات، قد أعطى دستوراً للسيد الخوئي - أبقاه الله إنشاء الله - حيث أنه ظلّ لمدّة معيّنة يأخذ منه الدستور، فقال له: لا تتناول الطعام لمجرّد التسلية والتفكّه! فهو بدوره فكّر في الأمر، وتساءل في نفسه ماذا عليّ أن أفعل؟ فيجب أن نأكل الطعام على كلّ حال، مثلاً: لا بدّ وأن نأكل الأرز وكذلك نأكل المرق أيضاً، وكما لا نقع في التفكّه والتفنّن، نقوم بأكل الأرز لوحده منفرداً، ثم نأكل المرق منفرداً، ونكون قد قوينا البدن، وفي نفس الوقت نكون قد قللنا من التفكّه والتلذذ بالطعام.

بالطبع، الإفراط في ذلك أيضاً ليس جيداً، فخير الأمور أوسطها، فمن الجيد أن يأكل الإنسان أسبوعياً لحمًا مرتين أو ثلاث مرات، ولكن الأزيد من ذلك ليس جيداً، وهو يتعب فكر الإنسان ويقلل عزمته عن العمل، وحينما يتعب الفكر تتعب الروح، وحينئذٍ يتعطل هذا السيف الذي ينبغي أن يستفيد منه لاجتياز الطريق إلى الله، حتى يصل إلى حدٍّ يقع ويسقط ويصدأ، ثم بالتدرج يصبح ثقيلاً، حينئذٍ يتبدل ذاك السيف القاطع إلى قطعة حديد صدئة لا فائدة فيها.

والأهم من كل ذلك هو الرياضة الروحية، بحيث تكون نفسه وروحه طائعة بيده، فيسوسها ويؤدبها، ولا يجعلها في أيّ طريق وأيّ ممشى، فلا يدخل نفسه في وادي مشتبهاته النفسانية! فالمجالس.. المحافل.. الكلام.. التحدث.. كل ذلك مضرّ، وتسقط الإنسان بشكل كليّ، الخروج لمجرد الترفيه.. والسفر دون سبب كل ذلك يتعب الإنسان.

المرحوم القاضي كان يقول: إنّ العلماء والأساتذة يقولون: السفر للسالك مضرّ أصلاً، ويجب أن يكتفي بالحدّ الأقل وبمقدار الضرورة، وإلاّ فإنّ تلك المدّة التي يكون فيها مسافراً سوف يفقد ذاك السكون وتلك الطمأنينة شاء أم أبى، هذا مضافاً إلى أنّه لا يكتسب شيئاً في هذه الفترة، ولا يتقدّم، وحين العودة عليه أن يبقى لمدّة طويلة ليبدل جهده في استرداد تلك الحالات التي كانت لديه من السكون الطمأنينة.

والسكوت وعدم التكلّم في غير موضعه، ولا يتحدّث كثيراً، بل عليه أن يجتنب الكلام العادي، وهذا بالنسبة للسالك من الدستورات الحتمية.

ينبغي للسالك أن لا يتكلم، ولا يقول مثلاً: نجلس معاً أنا شخصين أنا وصديقي.. ونتكلم هنا وهناك... عن الأرض والسماء والشرق والغرب والسياسة وهذا الصوب وذاك الجانب.. وذلك بعنوان أننا مثلاً شخصين صديقين، من نفس المشرب وعلى نفس الطريق وهو ممّا لا ضرر فيه.. لا أبداً!! بل هو مضرّ جداً، ويوجب السقوط بشكل كلي، ويقضي عليه بشكل تامّ من حيث لا يشعر.

فهذا آية الله آقاي الحاجّ الشيخ محمد تقي بهجت الفومني، والذي ما زال - بحمد الله - على قيد الحياة، وهو مشرفّ بالسكن في قم فعلاً، حيث كان أحد تلامذة المرحوم القاضي، وفي زمان شبابه وصباوته كان يمتلك حجرة في مدرسة "السيد"، وحسب الظاهر ظلّ في تلك المدرسة سبع سنون، فقد كان يراعي المراقبة والسكوت إلى الحدّ الذي لم يكن ليراه أحد من الطلبة في مدرسته!

كذلك آقاي الحاجّ الشيخ عبّاس القوچاني - رحمة الله عليه - والذي قد ارتحلَ إلى الدار الأبدية منذ سنة وبضعة شهور، يقول: كان لدينا حجرة في مدرسة "السيد" - لكلّ له حجرته - وحينما جاء الشيخ محمد تقي إلى المرحوم القاضي - رحمة الله عليه - وتلقّى منه الدستور، كان حينما يريد الخروج من المدرسة لحضور الدرس ويرجع، بغطّي رأسه بوضعه العبادة عليه، وذلك كي لا يراه أحدٌ في الطريق أصلاً، ولا يلتقي بأحد أو يتكلم معه، ولا ينشغل معه بالسلام وردّ السلام.

وبعد ذلك يقول: كان شديداً في مراقبته بحيث أنه كان حينما يريد الورد إلى المدرسة والدخول إلى الحجرة، كان يأتي من ذاك الباب الواقع في الدهليز المسقوف خلف المدرسة، حيث كان من جهة الغرفة العليا وفوق الدرج، فكان يذهب منه دون أن يرد صحن المدرسة، وبحيث لا يلتقي مع أحد، وهذا لم يكن لمدة يوم أو يومين! بل كان على ذلك طوال السنوات السبع، هكذا كان يعمل، وبالطبع فقط هو الذي حصل على نتيجة ذلك.

ونحن في هذه السنوات الأخيرة في طهران، قد واجهنا أحداً.. يعني لدينا علاقة معه من الأول.. فهو أحد علماء تبريز، وقد أتى إلى طهران وسكن فيها.. وله مسؤوليات ومناصب وما شابه ذلك، ففي إحدى الأيام التقينا به - وبالطبع فإنه مطلع على ارتباطاتنا مع العلامة الطبائبي بشكل كامل - فشرع بالشكاية والعتاب على العلامة الطبائبي وقال: نحن مع كوننا من بلد واحدة، وكنا ندرس في النجف سوياً، إلا أن العلامة الطبائبي لم يكن يسمح لنا بالتواصل معه أصلاً، لا هو ولا أخوه.. فهما حينما يريدان أن يمران من السوق للذهاب إلى الدرس أو الإياب منه ينحيان برأسهما إلى الأسفل، ولا ينظران إلى هذا الجانب ولا إلى ذاك، وإنما يسدلان عيونهما إلى الأسفل، وكأننا أصلاً لسنا بإنسان...

نعم! هذا الشخص كان يقول ذلك بقصد الشكوى، أي بقصد الشكاية أو مثلاً التعريض.. ولكن حسناً.. ماذا يعلم هذا أن ذاك الشخص أو أخاه في ذاك الوقت حيث كانوا طلبة، وكانوا عمرهما مثلاً لم يتجاوز العشرين ونيّفاً ليس أكثر.. فأخوه كان أصغر منه بخمس سنوات (أعني

السيد محمد حسن)، فهؤلاء لماذا لم يكونوا يتكلمون مع هذا وذاك؟ لماذا لم يكونوا ليتلقّوا إلى هذا الجانب أو ذاك؟! لماذا لم يسألوا أنفسهم؟ والحال أنّ نفس الإنسان تحبّ أن تفرّج وتتلقّت إلى هنا وهناك.. وتميل إلى الاختلاط مع فلان وفلان.. لا! إذن، في قلب هؤلاء همّ وألم.. وهم يعرفون أنّه لا يرتفع إلاّ بذلك، كما أنّهم لا يهينون أحداً، بل لكلّ احترامه المحفوظ، ولكن ذلك لا يستلزم أن ينجّر الإنسان إلى هذه الجهة وتلك.. وينظر هنا وهناك.. ويتوادم مع هذا ويسلم على ذاك.. ويتكلم عن هذه المسألة وتلك.. ويتواجد في المجالس والمحافل والـ "كعدّات" والمعاشرات التي لا طائل منها.

السكوت أحدُ الدستورات الأساسيّة لهذا الطريق، ولو لم يلتزم الإنسان بالسكوت مطلقاً، فسيخسر كلّ رأسماله النفسيّ ويفقد مكتسباته النفسيّة، فالنفس قد تعبّت واشتغلت بالذكر.. وقامت بالعبادة.. ومن باب المثال: قد أحييتُ أحد الليالي حتّى الصباح، حسناً.. هذه النفس تنتج وتكتسب، فإنّ يسكتُ يبقى ذلك محفوظاً لديها، وتبقى هذه النفس مع مكتسباتها كذلك مصونة، وتتمتّع بالهدوء والسكينة، حينئذٍ تتوجّه نحو مكتسبات جديدة، وأمّا لا.. لو لم تسكت فسوف تضطرب النفس بأجمعها وستهتزّ، وسوف تتصاعد منها جميع نفاياتها وأوساخها، وبالتالي يتلوّث ذاك الصفاء والماء الزلال الكائن في النفس وتتوسّخ روحه، والحال أنّه هو لا يفهم ذلك حسب الظاهر ولا يلتفت، أو أنّه يشرع بالاعتراض ويقول: ماذا نفعل فنحن لا نتطور!! ما الذي ينبغي أن نقوم به فنحن لا نترقى!! ماذا علينا أن نعمل فنحن لا نتكامل؟ كلّ ذلك لأجل هذه المسألة، من أنّه يقوم

بإهدار ما يكتسبه من مكان آخر، مثل الخزان: يكون له ثقبان؛ يرد الماء من أحدهما، ويخرج من الآخر، فمن الطبيعي أنه لو بقي كل عمره يدخل الماء فيه فإنه لن يمتلئ.

جان همه روز از لگد كوب خيال

وز زيان و سود وز خوف زوال

ني صفا مي ماندش ني لطف و فر

ني به سوي آسمان راه سفر<sup>(١)</sup>

فحضور القلب في الصلاة واجب، وهو أمر لازم، فلو لم يكن للإنسان حضور قلب، فإنّ صلاته لا ترتفع إلى الأعلى بذاك المقدار. ولدينا رواية تصرّح: بأنّ الصلاة ترتفع إلى الأعلى بالمقدار الذي يكون لدى الإنسان حضور في القلب، وبذاك المقدار الذي لا يكون للإنسان حضور في القلب فلا تعلق ولا ترتفع صلاته، والملائكة يرفعون صلاة الإنسان، حتّى تصل إلى السماء الأولى فيقال: أرجعوا هذه الصلاة واضربوها بوجه صاحبها! لأنّه لم يكن أثناء صلاته متوجّهاً إلينا، وقد جعل لنا شريكاً آخر أثناء صلاته، ويقول الله: أنا أفضل وأحسن شريك، لذلك فإنّي أعطي حصّتي إلى ذاك الشريك؛ فأنا غير متحاج إلى هذه الصلاة! فمن الممكن أن يعمل الإنسان ويسعى كثيراً ولكن تكون نتيجة سعيه قليلة، وذلك لأجل هذا الأمر، فلا بدّ للإنسان أن يراعي هذه المسألة.

(١) النفس دوماً بسبب تظافر الأوهام عليها والخيالات، وبسبب التفكير في الخسارة الريح وخوف الفقدان. لا يبقى لها أي صفاء ولطافة وجلالة، ولا يفتح لها المسير إلى العالم العلوي.

كنت ذات يوم عند العلامة الطباطبائي، فسألته: أنه مثلاً عن العمل الفلاني في أي حالة يكون نافعا ومؤثراً؟ أي كيف يكون مؤثراً؟ فقال: مع المراقبة! المراقبة! بعد ذلك شرع بتفسيره فقال: هل تعلم ما معنى المراقبة؟ أو أنه معنى المراقبة هو ذلك: **صمت وجوع وسهر وعزلت وذكرى به دوام** أي لا بد من الصمت والجوع والسهر والعزلة وذكر الله على الدوام، يعني: كي يتحقق هذا العمل لا بد معه من المراقبة قطعاً:

**فالصمت:** يعني السكوت.

**والجوع:** يعني تنظيم الأكل، وترك التشهي، والابتعاد عن الإفراط في الطعام وما شابه ذلك، والصوم أيضاً، وهو الحد الأعلى والأكمل للجوع، بشرط أن لا يتدارك ما فاتته حين الإفطار أو حين السحر، ولا يعود يتملى ويكدس الطعام في داخله فتذهب جميع آثار الصوم وتزول.

**والسهر يعني:** الاستيقاظ آخر الليل، أصلاً السالك لا يبلغ شيئاً من المقامات بدون اليقظة آخر الليل وبين الطلوعين، حتى لو تعب وجاهد ألف سنة فلا فائدة في ذلك، وهذا دستور أساسي!

**العزلة:** وهي الابتعاد عن أهل الدنيا، وترك أهواء عبيد الدنيا وأرائهم، وأولئك الذين همهم اكتساب المال والجاه والاعتبار، صحيح أنهم مسلمون ويصلون... ولكن قلوبهم خالية من هم الدين.. وخاوية من لوعة الله.. وإنما همهم هو المسائل الحياتية والاجتماعية وأمثال ذلك، فالاختلاط مع هؤلاء يتعب الإنسان، ويهيم الكسل ويميت الروح.

**وأما دوام الذكر:** فهو اتحاد قلب الإنسان واتصاله بذكر الله والتفكير بالله، وكون الله موضع نظره شبراً بشبر وساعة بساعة، فكم مضى من

عمري؟ ولا أدري كم سوف يبقى أو أنه قد نفذ؟! فهناك الكثير من أمثالنا قد سارو وتحركوا وذهبوا ووصلوا.. آلاف الأشخاص كذلك كانوا مثلنا أيضاً، وكانوا يتنعمون بالحياة الوردية حتى أقدامهم.. ثم علقوا بذلك وشرعوا بالتسويق و "سوف" و "سين" و "ليت" و "لعل".. حتى انقضى عمرهم.. وفي آخر المطاف رحلوا ويدهم خالية.

هذه المراقبة والتي هي عبارة مجموع هذه الأمور، حكمها حكم الحمية، وهي عبارة عن الشروط الضرورية لذلك المريض الواقع تحت العلاج الطبي؛ فذاك الدواء الذي يُعطى إليه، أو تلك العملية التي يريدون أن يجروها له، كل ذلك متوقف على هذه الشروط؛ من أن لا يكون المريض قد أكلَ قبل العملية! فإن يأكل مقداراً قليلاً أو أنه يكون في معدته شيء من الماء، فمن الممكن أن يصاب باختناق أثر ذاك البنج المعطى إليه؛ لذلك يقولون له: عليك أن لا تأكل شيئاً! كذلك النافذة الواقعة فوق سريره يغلقونها ليلاً كي لا يتناول شيئاً حينما يستيقظ جائعاً في الصباح! وفي هذا الحال ليس له أن يقول: هنا نحن هنا.. لو تعطونا جرعة ماء.. بل جيبونه: إنشاء الله يا فلان.. وهو لا يفهم حقيقة الأمر! وأما لو لم يمنعوه.. ولم يمسكوا يده.. فسوف يقوم ويتناول الماء من تلقاء نفسه، ولكن هذا الماء يهدد حياته بالموت، ويكون بنفس هذا العمل قد استقبل الخطر المحدق به، فلو كان مطمئناً بقول الطبيب وبصحة كلامه، ويعلم أن لهذا الفريق وهذا المستشفى أسلوباً وأنظمة متقنة وصحيحة، وأن كل من يرد إليه عليه أن يلتزم بذلك شاء أم أبى، حتى تظهر تلك النتيجة المرجوة

والمفترضة من هذا المستشفى، بأن يصبح المريض سالماً معافىً، فلو كان مطمئناً بكل ذلك حينئذٍ سوف ينال ذلك وسيبلغ ذلك، وإلا فلا.

فالسكوت يحزم أفكار الإنسان، وعلى العكس من ذلك فإنها تتلاشى وتتناثر جرّاء التكلّم، وهذا طريقان متعاكسان، فلو أراد الإنسان أن يتوجّه إلى المشرق، وكان شرط ذلك مثلاً اختيار السكوت - حسب الفرض - فلو لم يصمت سوف يكون حاله وكأنّه يتحرّك نحو الغرب!

فالسكوت الذي يقوم به الإنسان يؤدّي إلى ادّخار أفكاره في نفسه، فذاك الهدف الكامن في نفس الإنسان، والذي يظهر له بشكل متفرّق ومن خلال صور مشتتة ومتكثّرة، كلّ ذلك يتجمّع بشكل تدريجيّ، فتلك الأمواج والتذبذبات النفسيّة والشقوق الحاصلة بين الصور الذهنيّة تتلاءم وتجتمع بواسطة الهدوء والسكون في النفس الحاصل من الصمت، فيشاهد الشخص النفس ويرى أنّ هذا الماء الكائن في النفس أصبح ركداً هادئاً إثر السكوت والصمت، حينئذٍ يتمكّن من مشاهدة صورة القمر والشمس بواسطته.

وأما لا.. بأن لا يراعي الإنسان السكوت، بل أرسل عينه لتشاهد كلّ شيء.. وفتح لسانه على كلّ شيء.. وجعل نافذة أذنه بوابة مفتوحة لكلّ موضوع ليدخل في ذهنه.. حينئذٍ يظلّ هذا الذهن متذبذباً بين حالتي الانتشار والتمركز، حينئذٍ يرى ظهورات الله في كلّ موجود، ولكن عماء لا يدعه يرى حقيقة ذات تلك الظهورات، فيرى تلك الحقيقة بواسطة صور

متكسرة وممتزجة <sup>٨</sup>ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ% (١)

وهذا يبقى حتى آخر عمره يعيش مع هذه التفرقة وهذا التشتت، ويأنس باسم السلوك والعرفان، وهو مجرد أنس وسرور فقط! ولا يحصل على شيء أبداً، ويذهب من هذه الدنيا تغمره الحسرة، لأن نفسه لم تخطو أي خطوة في سلم التكامل، فقد اكتفى من العمل بصرف الألفاظ، وبدلاً من أكل الحلوى وتذوّقها قد اقتنع بحفظ اسم العسل والحلوى! فبدلاً من أن ينام في المشفى وإجراء المعالجة والرجوع إلى الطبيب وأخذ "الروشتة" قد اكتفى بوضعها في جيبه فقط، فهذا لا يبلغ شيئاً أصلاً، بل ولا أنه لا يصل إلى شيء وإنما سوف يواجه عقبات سوف يتلى الإنسان بها والتي لا مزاح معها!!

في وقت من الأوقات كنت أقول في نفسي: مثلاً هذه الآيات القرآنية التي تهدد بالعذاب وأنه كذا وكذا.. واقعاً هل الله العليّ الأعلى يعذب الإنسان ويحرقه ويفنيه ويخلده في جهنم؟! علماً أن هذا الحد الذي بين قليل أصلاً! فهي إشارات صدرت من الأنبياء والأولياء والأئمة والقرآن حول هذه المسائل! والحقيقة أن الواقع أشد من ذلك بكثير جداً!!

وحقاً ما يقوله رسول الله:

نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم، يعني إننا مأمورون أن نبين للناس على قدر مدركاتهم وفهمهم، ولا يمكننا أن نتجاوز ذلك.

(١) سورة يوسف (١٢) ذيل الآية ٣٩.

فبقدر الخلايا التي يشتمل عليها دماغ الإنسان، وبالقدر الذي يحتويه بدن الإنسان من خلايا، وبمقدار الجهات الإستعدادية للإنسان وقابليّاته وما له من القوّة.. بمقدار كلّ ذلك ينبغي للإنسان أن يسير نحو التكامل ليبلغ كلّ ذلك فعليّته المحضّة، حسناً.. نجد الإنسان لا يقوم بذلك، بل يهمل كلّ هذه الجهات، ويركّز سعيه في منحى واحد فقط، حينئذٍ سوف يرحل عن هذه الدنيا وهو ناقص، تماماً كما لو أراد قطفَ فاكهة فجّة، وهي في هذه الحالة لا تنفصل عن شجرتها، ممّا يؤدّي إلى خدش الشجرة وجرحها!! فتخرب الشجرة وكذلك الفاكهة الفجة هي بدورها فاسدة، فالفاكهة الفجة والغير الناضجة لا يمكن إهداؤها للسلطان! فيلقون بها في البستان كي تتحوّل إلى سواد.. أو أنّهم يلقون بها ضمن علف حمار أو بغل.. حينئذٍ تكون حصيلة حياة الإنسان وخلاصة دنياه أنّه أصبح طعمة للشياطين.. واقعاً هو طعمة للشياطين وصيداً لهم! فهذا الإنسان المقدر له أن يكن أعلى من الملائكة، يصبح طعمة للشياطين! حينئذٍ تزداد حسرته.. وتشتدّ الندامة.. ولا يوجد طريق للرجعة.. وإنّما يقف الشيطان ويقول:

مَّا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ% (١) <أي أنا لم أجبركم، وإنّما دعوتكم، فلماذا ليّتم دعوتي وتركتم نداء الله ودعوته؟! فأنا لا أقدر على مساعدتكم أبداً، كذلك أنتم لا تقدرّون على مساعدتي، فكلانا مبتلون؛ أنا رهين نفسي وأنتم رهنا أنفسكم، فلا تلتجؤوا إليّ وتطلبوا منّي العون ولا تعاتبوني على ما

(١) سورة إبراهيم (١٤) قسم من الآية ٢٢.

خدعتكم به في الدنيا، بل تعالوا احملوا عني هذا الحمل وليلتزم كلُّ<sup>ت</sup>  
بمسؤوليته وتعهدّه >

فعلى المؤمن أن يظلَّ ساكناً بشكل مطلق عن كلِّ ما يوجب الضرر،  
إلا إذا كان أمراً بالمعروف، أو نهياً عن منكر، أو ذكر الله، أو مباحثة  
(المباحثة الخالصة لله وفي الله ها! دون التي تشتمل كثيراً على الجدل  
والمراء.. وإلا فبالمقدار الذي يلزمه كي يحصل على المطلب العلمي فعليه  
أن يتابع)، لذلك فعلى المؤمن أن يكون وقوراً.

المرحوم القاضي - رحمة الله عليه - كان يعطي تلامذته دستوراً هو  
أن يكتبوا رواية "عنوان البصري" ويضعوها في جيبهم على الدوام،  
ويقرأوها مرتين في الأسبوع، والحقير قال أيضاً لبعض الأصدقاء: أن  
يكتبوها ويضعوها في جيبهم، فمن يعرف العربية فهو، ومن لا يعرف  
العربية مثلاً، فلا أقلَّ يكتب ترجمتها ويضعها في دفتره الصغير داخل جيبه  
ويطالعها يوماً أو يومين في كل أسبوع.

الحقير قد ذهب إلى النجف وأخذت دستوراً من قبيل: العمل برواية  
عنوان البصري، ولزوم وضعها في الجيب.. فأنا قد جعلت دفترًا صغيراً في  
جيبى منذ ذلك اليوم، وأتذكر كيف أنه لم يكن عندنا "البحار" حيث كنَّا  
نستنسخها من "البحار"، ذهبنا إلى حسينية الشوشترين حيث فيها مكتبة  
عامّة معروفة في النجف، فأخذنا المجلد الأوّل من "البحار" من المسؤول  
عن المكتبة، وعثرنا على هذه الرواية، وأنا نسختها هناك، وما زال هذا  
الدفتر الصغير عندي، فهو دفتر صغير مكتوبة هذه الرواية في أوّلّه.

يعني: أريد أن أبين أنه يجب على الإنسان أن يسعى نحو الشيء ويتحرك، وبدون المتابعة والتحرك لا يبلغ شيئاً، فالإنسان يعمل كثيراً ويتعب، لأن ذلك له شرائط؛ فيجب أن يضاء الضوء حتماً.. ويجب أن تكون كل سلسلة الأسباب متحققة: فلا بد وأن يوجد المصنع.. ويوجد من يمدد الأسلاك.. ويوجد عداد الكهرباء.. ومحافظ.. ومثلاً شيء تخزن فيه الكهرباء.. ترانسورات مختلفة.. كل ذلك كي يتمكنوا من إيصال الكهرباء إلى هذا المصنع، ومع تحقق جميع هذه الوسائل، إلا أن طرف السلك الذي في يدنا لم نوصله ولم نضغط عليه قليلاً.. فسوف لا يتحقق الاتصال.. وبالتالي تكون كل هذه المتاعب والزحمت هدرًا! لذلك لا بد من رعاية ذلك أيضاً.

وها نحن نشاهد ضمن تلاميذ المرحوم القاضي أن الأشخاص الذين عملوا قد ترقوا ومن لم يعملوا لم يتقدموا.. وينبغي أن لا نقول: إن كل تلاميذ السيد علي القاضي قد وصلوا بأجمعهم.. لا! فبعضهم رجعوا إلى إيران، وذهبوا إلى هذه المدينة وتلك المدينة، وتصدوا لإمامة الجماعة.. وصاروا من أهل السياسة.. وركضوا وراء التعيينات والنيابة والمجلس في ذاك الزمان.. وكذا وكذا.. كل ذلك بعنوان خدمة الإسلام وما شابه ذلك، والمرحوم القاضي لم يكن راضياً عنهم، وكان ينبئ عن بعض المسائل عنهم كذا وكذا.

فأحد تلامذة المرحوم القاضي قد ذهب إلى "آذربيجان"، ثم بعد مدة سنة، ذهب شخص إلى "آذربيجان" ليزوره، فقال: لا.. الحمد لله.. قد أحاط به المریدون والمحبون وأصبح من الوجهاء والمبرزين.. والخلاصة

أنَّ المرحوم القاضي قد تأثر لذلك كثيراً من هذا الكلام، وقال: هذا التعارف والصدقات، أي اشتهار الإنسان بين الناس وإحرازه على الشهرة لهي آفة عظيمة! وهي أمر خطير ها! يعني: نفس معرفة الناس بالإنسان وقصدهم إيّاه.. فكلّ شخص له حاجة ومطلب.. فحاجات الناس عادة تدور حول المعاش والخبز والمرق وما شابه ذلك.. بل لا ترقى لذلك أيضاً.. ومن الطرف الآخر فهذا الشخص ليس كاملاً ولا واصلاً إلى سدرة المنتهى ولا متربعا فيها!! حينئذ سوف يغرق في كلّ هذه الكثرات وينشغل بها، وبالتالي يخسر روحه، فمن هذا رجاء ومن ذاك طلب وهذا سلام وذلك صلوات وهذا يقبل يده وهذا قدمه.. حتّى ينقضي عمره، وأمّا ذاك الشخص الذي لا.. بل يجتنب الشهرة، فهو لا أقلّ يستطيع أن يحزم أمر نفسه ويجمع ذاته، ويتعمّق في ذاته ويغوص فيها، ويسعى إليها بواسطة السكوت الذي بيّناه، حتّى يتسنّى له بلوغ مرحلة معيّنة.

**آقاي الميرزا حسن النوري** - رحمة الله عليه - والذي توفّي أخيراً بسبب تصادف وانتقل إلى رحمة الله، كان يقول لي: كنت يوماً عند السيّد البروجردى - رحمة الله عليه - كنتُ عند آية الله البروجردى حيث قال لي: ميرزا حسن! إلى اللحظة التي كنّا فيها في بروجرد كنّا فيها لأنفسنا، وحينما أتيتُ إلى قم فأنا لم أعد لنفسي وإنّما للنّاس! هل التفتّم؟! هذا كلام.. هذا كلام صحيح.

نعم! على كلّ تقدير فإنّ المرحوم القاضي قد ربّى تلاميذاً، وكانوا مؤدّبين وموقّرين وصبورين وشاكرين وعادلين إلى حدّ أنّ الحاجّ الشيخ عبد الهادي الشيرازي - رحمة الله عليه - والذي هو من المراجع البرازين

في النجف، وكان شخصاً متّقياً حقّاً، كان يعدّ شهادة كلّ واحدٍ من تلامذة  
المرحوم القاضي تعادل شهادتين! يعني الواحد من تلاميذ المرحوم  
القاضي فيما لو أتى إليه وشهد في قضية أو مرافعة معيّنة، كان يحسب  
شهادته بيّنة تامّة! دون الحاجة إلى عادلين.

ونحن كنّا نسمع كراراً أنّ تلامذة المرحوم القاضي... لماذا؟ لأنّهم  
كانوا مراقبين بشكل دائم، يراقبون عمل أنفسهم، كانوا يدرسون بشكل  
جيد، فجميع تلامذة المرحوم القاضي كانوا طلبة ومحصلين، وكانوا جميعاً  
عدولاً، وكانوا أهل مراقبة بأجمعهم، وذلك إلى حدّ لم يكن معهم مجال  
للتفريح.. وللذهاب إلى نهر الكوفة للسباحة! فالسباحة ليست حراماً، إلاّ  
أنّ السالك المحظوظ بالعجز والمبتلى بألف ألم.. فهذا ليس له مهجة على  
هكذا رحلة، نحو النهر ليسبح.. آخذاً معه السماور وعلى ظهره الزوادة..  
حتّى يعبر النهر من هذا الجانب إلى دون أن يتبلّل السماور والبساط، ثمّ  
يصلوا إلى تلك الضفّة من النهر يجلسون ويفرحون ويمضون طوال النّهار  
من الصبح حتى الغروب.. ثمّ يرجعون ويستعدّون لدرس السبت أو ليلة  
السبت.. فحتّى لو كان كلّ ذلك تفريحاً وهو ليس بمعصية، أصلاً كلامنا  
ليس عن الحرام والمعصية، إلاّ أنّه ليس هناك مجال لذلك، بل كانوا  
يصرفون أوقاتهم بالدرس والبحث والمراقبة والمحاسبة والسهر في مسجد  
الكوفة ومسجد السهلة.. وهكذا كانوا يقضون أيامهم.. حتّى أنّه ينذر أن  
يبقى لديهم وقت آخر.

وكان للمرحوم القاضي - رحمة الله عليه - أربع نساء في أربعة  
بيوت، فكلّ واحدة من هؤلاء النسوة كان لديها منزلها الخاصّ ولكن نفس

المرحوم السيد القاضي لم يكن له منزل، أبداً أبداً! ومع ذلك كان المرحوم القاضي في كثير من لياليه يبقى لوحده وبمفرده، فهو رجلٌ مسنٌ ذو ثمانين سنة، أو أنه بين السبعين والثمانين، فقد توفي عن سنٍّ يناهز الواحد والثمانين، وحيداً في حجرةٍ من حجرات مسجد الكوفة أو مسجد السهلة! غريب وسط الصحراء في مسجد لا ضوء فيه ولا أحد هناك!! وفي بعض الليالي لم يكن أحدٌ هناك حتّى ولا شخص واحد! حسناً، فهؤلاء أيّ عمل يقومون به؟! هل أن هؤلاء لا عمل لديهم!!

كذلك نبيّ آخر الزمان، حيث كان يذهب من مكّة ليقبى في غار حراء وحيداً منفرداً، يبقى يوماً.. يومين.. أسبوعاً.. أسبوعين.. وفي بعض الأحيان كان يبقى شهراً! حتّى أنّ السيدة خديجة كانت تطوي ذاك الطريق الصعب، وكانت تحضر له أحياناً الطعام، كل ذلك لماذا؟ ينبغي للإنسان أن يفكر في ذلك! هل أن ذلك طريق موصل واقعاً أم لا؟! هل أراد تمضية وقته وملاً فراغه!! فذهب إلى أعلى الجبل ليتفرّج وتسرح عينيه في الطبيعة ويفكر في آثار الطبيعة؟! لا ليس ذلك، لم يكن ذلك إلاً فراراً من الازدحام والغوغاء، وعدم استماع ضجيج شياطين هذا العالم وصخبهم.. وبالتالي التمرکز والسكوت مقابل ذلك وجمع النفس وحزمها.

فنبوءة النبيّ لم تكن في أزل الأزال، بحيث أن كل تلك المراتب والمدارج قد أعطيت للنبيّ، ثمّ ليقول الله له تصنعاً قم وتظاهر أنك تعمل هذه الأعمال!! كي يتعلّم الناس كيف يتسلّقون إلى غار حراء!! لا.. بل كل هذه المتاعب والمشقات التي تحملها إنّما كانت مقدّمة للوصول إلى ذاك الهدف، نعم هذا الهدف هو حصيلة الإرادة الإلهية أيضاً، وغير خارج عن

الإرادة الإلهية الأزلية، فإذن النبوة والولاية وهذه المسائل ليست خارجة عن اختيار النبي وأمير المؤمنين وأمثالهم، وجميع تلك الخطوات التي اجتازوها إنما كانت في درب العلم والأدب والتربية، ويجب أن يكون ذلك حافظاً لتربيتنا وتعلمنا في الصراط.

ولو عملنا كذلك سوف نصل وإلا فستأخر، فإطلاق اسم السالك على أنفسنا لا ينفع ولا يداوي الأمر! بل يجب أن يكون الإنسان مسلماً واقعاً وحقيقة في مقام الولاية، ويجب أن تخضع روحه بشكل واقعي، على الإنسان أن لا يقع في الإكثار من الكلام ولا المزاح الزائد.. حتى أنني قد أذرتُ بعض أولئك الرفقاء الذين كانوا في طهران أن لا يمزحوا! لا تمزحوا في المجالس! لا تثرثروا! ولا تضحكوا! فهذا يخربكم! حسناً، أي شيء ينبغي أن يقوم به الإنسان؟! فإنه بالمقدار الذي يعمل به ويحزم نفسه سوف يصل، وإلا فهو الذي يبقى، وعليه فما الذي ينبغي على الإنسان أن يفعله سيّد؟!!

ها نحن قد اجتمعنا وجلسنا هنا ونقول دائماً: يا للعجب!! هذا أمير المؤمنين صاحب الولاية، مع كل هذه الخطب العجيبة التي يلقيها على مسامع أهل الكوفة، حيث إن لغتهم العربية وكلهم يعرفون اللغة العربية، إذن لم يكونوا يسمعون أبدأ؟! لم لم يصغوا؟! لماذا كان أمير المؤمنين يقول دائماً: قد أدميتم قلبي وملاؤموه قيحاً.. لماذا لا تفهمون كلامي؟! واقعاً الإنسان يتعجب.. فهم لم يفعلوا.. فما معنى التعجب؟! بل خلاف ذلك هو الموجب للتعجب!! هذا هو الواقع، لأنه إنما يتم النداء والدعوة للجميع،

ومن يريد العمل يعمل، ومن لا يعمل لا يعمل، فليس بين الله وبين أحدٍ ذرّة من الشراكة.

قد بيّنتُ لبعض الرفقاء، أنّه نحن الذين بلغنا من العمر السّتين والسبعين، وشابتُ محاسن وجوهنا وانتشر الشيب فينا.. ومع ذلك كم مرّة ذهبنا ورجعنا!! فكم مرّة مرضنا مرضاً مهلكاً قطعاً ثمّ رجعنا وتعافينا، والآن عمرنا ليس أكثر من بضع أيّام، فنحن الآن واقعون لا محالة تحت حساب!! فالله يحاسبنا بشكل لا يتصوّر أصلاً!! لا يخطر على الخيال! أنا أقول لكم هو شيء لا يصدّق!! حينما نكون واقعين تحت حساب كذلك، وهذا بالنسبة للحسنات التي أتينا بها لا السيئات!! إذا كان الحساب ينتظرنا فعلينا أن نعطي إذاً، فهو حساب صعب جداً، حينئذٍ كيف يمكنني أن آتي وأدعي أنني أتحمّل حملكم؟! وأيّ حمل هو! أوزاراً سيئة.. وأثقال الخطيئة.

أيّها السادة الطلبة! إنّ زيارة الإمام، أو مكّة، يجب أن يتمّ الذهاب إليها مشياً وحافي القدم، فلا يركب التكسي ولا يصرف مالٌ زائد، وإنّما نخطو هذه الخطوات القليلة التي تفصلنا عن الحرم مشياً مع كامل الاحترام لحريم الإمام الرضا، ثمّ نرجع مشياً أيضاً.

فأنا أوّل ما أتيتُ إلى مشهد المقدّسة، كنت أبحث عن منزل، فقلنا ليكن مكاناً يمكننا أن نتشرّف بزيارة الحرم كلّ يوم مشياً ونرجع، لأنّ المجاورة لقبر الإمام وبالخصوص الذهاب لزيارته مشياً هو في حدّ نفسه أمر جيّد، لأنّها أمكنة ومشاهد مكرّمة، ومشاهد معظّمة، فليس قبر الإمام بأقلّ من الكعبة، بل هو حقيقة الكعبة وروحها، وعلى الإنسان أن يراعي هذه الجهات.

ولكن بالطبع، حينما يذهب الإنسان مشياً فسوف يسرح نظره هنا وهناك، أيها الطلاب! من يذهب إلى زيارة الحرم عليه أن يضع يحني رأسه للأسفل ولا يتلفت، لا أنه يحنيه إلى الأسفل بحيث يقولون عنه: إنك متكبر!! فالآن صدره ضيق ولا يعتني بأحد.. لا فهذا غير جيد أيضاً؛ أصلاً التصنع ليس جيداً! فالتصنع لا ينفع السالك.

على السالك أن يكون نفس عمله سلوكاً، فقلبه مملوء بالمطالب والمعضلات التي تشغله بحيث لم يبق لديه مجال للتفكير والتصنع والاتفات إلى هنا وهناك، أو أن ينشغل مع هذا وذاك، أو إلقاء محاضرات هراء! وإشاعة الغوغاء والصياح والمنازعة في المجالس العامة وأمثال ذلك، فكل ذلك ليس صحيحاً، أصلاً على المؤمن أن يكون وقوراً، بحيث حينما يرويه يكون نفس عمله كاشفاً ومعرفاً عن حاله.

**"في المكاره صبور"** أي في المواضع المزعجة والمخالفة للطبع والمزاج يجب أن يصبر، أي مهما أمكن للسالك أن يكون وقوراً وصبوراً، الوقور يعني: يكون هادئاً ذا سكينه، بأن يكون متيناً وموزوناً، والصبور يعني: لا يهدر تلك الواردات التي تنزل عليه، وليس الصبور من يصبر لأجل صنع طعام لذيذ فينتظر إحضاره!! ها؟! لا، فلا معنى للصبور بغية تناول الطعام اللذيذ! وإنما الصبر هو فيما لو لم يكن لديه طعام لذيذ فيصبر على عدمه، فالصبر على الأمور المزعجة، كأن يصبر على سماع كلام سيئ في حقّه، أو أن لا يسمع كلاماً مناسباً من أبيه وأمه وأخته وأصدقائه، أو أن يسمع كلاماً غير مناسب.. فيتجاوز عن ذلك بواسطة سعة صدره واستيعابه للأمور.

ويؤثر أصدقاءه في الله على نفسه، أي يقدمهم، ولا ينظر إلى هذا الإيثار ولا يركّز عليه، مثلاً: في قد فعلنا كذا وكذا ذلك اليوم، وكذلك هذه المرّة قد تنازلنا عن حقّنا وأعطينا إياه.. وأراد أن يركب الأتوبوس فأسرعنا وأركبناه بدلاً منّا... بل أصلاً لا يلتفت أصلاً إلى كل ما يفعله من الخير لأجل رفقائه، بل يرى نفسه مقصراً أيضاً، فهذا يؤدي إلى ترقية نفسه. يعني إنّ الله عالم بالسرّ والخفيّات، وطبقاً لتلك الأعمال التي يقوم بها سوف يجازيه ويكافئه، وتكون مكافاته وعطيته فوريّة